تصدير

بقلم الأستاذ عمر الدسوقى

من أهم ما عنيت به نهضتنا الحديثة منذ أواسط القرن التاسع عشر نشر تراثنا القديم فى شتى نواحى المعرفة ، وتأسست لذلك جمعيات علمية كثيرة كان من أشهرها جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، التى قامت بطبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب ، ومن هذه الكتب : أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردى ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجة ، وديوان ابن المعتز ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ورسائل بديع الزمان الهمذانى وغيرها من الكتب .

وقامت (الجوائب) صحيفة الشدياق ومطبعتها بنشر طائفة من الكتب القيمة ، كانت لها شهرتها فى عالم الكتب ، لما اتسمت به من الصحة ، وأسس رفاعة الطهطاوى جمعية لنشر التراث ، وكذلك فعل الإمام محمد عبده ، ومن آثار جمعيته نشر المخصص لابن سيده من معجمات المعانى ، وقام بتصحيحه العالم اللغوى الشيخ محمد محمود الشنقيطى الذى كان له أثر فى ديوان الشماخ هذا الذى نقدم له ، كما شرعت فى نشر (الموطأ) للإمام مالك بعد أن جلبت نسخاً خطية له من تونس وفاس وغيرها ، واهتمت (المنار) لرشيد رضا بنشر بعض الكتب القديمة ذات الأثر فى اللغة والدين ، من ذلك : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى .

ثم زاد نشاط الجمعيات والهيئات المختلفة فى العالم العربى فى نشر التراث العربى القديم ، كجماعة اليسوعيين ببيروت ودار الكتب المصرية ، كما أن نشر التراث قد تطورت طريقته ومنهجه على مر الأيام ، ولم يعد مجرد طبع المخطوط القديم ، ولكن أخذ علماؤنا وأدباؤنا ومحققونا ينهجون نهج المستشرقين الذين سبقونا إلى هذا الميدان بسنوات طويلة ، حينما وجدوا تحت أيديهم عدداً وفيراً من نفائس الفكر العربى الإسلامى ، جمع فى خلال العصور الماضية ، وأيام محن المسلمين بالأندلس

وصقلية وفرنسا وإيطاليا ، ثم أيام أن دخلوا البلاد العربية والإسلامية غزاة فاتحين ، أو تجاراً مستعمرين ، وحرصوا على اقتناء النسخ النادرة ، والكتب الثمينة ، حتى تجمع فى مكتبات الغرب ما يزيد على مائتين وخمسين ألف مجلد ، ومن أشهرها مكتبات : برلين ، وباريس ، ولندن ، وليدن ، وأكسفورد ، وأدنبره ، ولينتجراد ، ومدريد .

قام هؤلاء المستشرقون بتحقيق عدد كبير من ذخائرنا العربية ، وتراثنا المجيد ، ونشره بطريقة علمية سليمة ، ولم يضنوا على عملهم هذا بالجهد أو الوقت أو المال ، كما فعل (دوزى) فى إخراجه نفح الطيب للمقرى ، والكامل للمبرد ، أوكما فعل (مرجوليوث) فى نشر : معجم الأدباء لياقوت الحموى ، ونشوار المحاضرة ، وديوان ابن التعاويذى ، وحماسة البحترى ، أو كما فعل (وستنفلد) فى نشره : مختلف القبائل ومؤتلفها لمحمد بن حبيب ، وتاريخ مكة للأزرقى ، وأخبار أقباط مصر للمقريزى ، وجغرافية مصر للقلقشندى ، وديوان علقمة الفحل ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت ، وآثار البلاد للقزوينى ، وطبقات الحفاظ للذهبى ، وغير ذلك من الكتب القيمة .

وكما فعل (دى جويه) الهولندى فى نشره : فتوح البلدان للبلاذرى ، وديوان مسلم بن الوليد ، وتاريخ الطبرى الكبير فى خمسةعشر مجلداً مع فهارس قيمة ، ونشر كذلك رحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، والأعلاق النفيسة لابن رُستة ، وجغرافية الأصطخرى ، إلى غير ذلك من نفائس الكتب ، ونوادر المخطوطات .

والحديث عما قام به المستشرقون فى إحياء التراث العربى يطول ، وليس مجاله هذا التصدير ، ولقد كان لمجهودهم هذا أثره البالغ فى حفز همم علمائنا واهتمام دور النشر القديرة لدينا بإخراج نفائسنا وذخائرنا القديمة ، فى صورة لا تقل صحة وتحقيقاً وأناقة عما قام به هؤلاء المستشرقون ، وهم وإن كان لديهم التفرغ للبحث ، ومنحتهم أممهم المال والوقت ، وتحت أيديهم المكتبات العامرة بالأبحاث وبالمخطوطات النادرة ، وكلهم يعرف عدة لغات عربية وشرقية ، تعينه على التحقيق ، إلا أنه كان ينقصهم أحياناً صحة الفهم لدقائق اللغة والشعر .

وما إن أجدنا طريقتهم حتى ظهر فى الميدان علماء أجلاء من أبناء العروبة، يعملون على تزويد المكتبة العربية بهذه الذخائر محققة على أحسن وجه وأكمله. ولقد كان لدار المعارف يدٌ مشكورة فى تشجيعهم بنشر (ذخائر العرب) فى طبعات أنيقة.

واهتمت جامعاتنا منذ تأسيسها بنشر تراثنا القديم وأقبل عليه شباب الباحثين لينالوا عليه درجاتهم العلمية العالية، بعد أن رُسمت لهم المناهج القويمة، وشفعوا هذا التحقيق بتقديم أبحاث مستفيضة تعين الدارس لتفهم ما نشروه، وتلقى أضواء ساطعة على النصوص التى حققوها، وراجع أساتذتهم ما قاموا به من بحوث وتحقيقات، ليتلافوا ما عساه يكون قد زَلَّ عنهم، أو وقعوا فيه من أخطاء، ليظهر الأثر العلمى سليماً قدر المستطاع.

ولكن هؤلاء الباحثين لم يجدوا السبيل دائماً ميسرة أمامهم، فلا يزال معظم تراثنا النفيس غريباً محتبساً فى مكتبات أوربا، على الرغم من الجهود المشكورة التى بذلها الأفراد من أمثال: أحمد تيمور، وأحمد زكى، والهيئات: كجامعة القاهرة التى رصدت لهذا العمل الأموال، وبعثت العلماء لنقل المخطوطات أو تصويرها، وكالجامعة العربية التى جدّت فى ذلك كل الجد حتى تهيأ لها عدد غير يسير منها، سيلقى ولا شك كثيراً من الضوء على الحقائق العلمية والأدبية والتاريخية المتداولة.

وإن كنا لا نزال نطمع فى المزيد وأن تنقل كل هذه الكتب أو ترد صورها على الأقل إلينا، فنحن أولى بها من سوانا، لا سيما وقد نشأت بين ظهرانينا طائفة جادة من العلماء المحققين، والشباب الطامحين.

ومن هؤلاء الشباب: السيد صلاح الهادى الذى شق على نفسه باختياره تحقيق ديوان الشماخ بن ضرار، ودراسة حياته وشعره[1]، ولقد شجعته على المضى قدُماً فى إنجاز هذا العمل العلمى الشاق، لما توسمت فيه من استعداد لغوى وأدبى ونفسى يؤهله للاضطلاع به، وأشرفت على عمله مغتبطاً به، فرحاً بالنتائج التى توصل إليها.

والشماخ بن ضرار شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية والإسلام، بيد أنه لم يتأثر كثيراً بهذا الدين الجديد فى ترقيق طبعه، وليونة أسلوبه وتعبيره. وفى تنوع موضوعاته،

---

(١) نشرت دار المعارف دراسة بعنوان: «الشماخ بن ضرار، حياته وشعره» لمحقق هذا الديوان.

وفى الأخذ من تلك الإشراقات والهداية التى جاء بها الإسلام بأى نصيب ؛ لأنه كان يعيش بالبادية ، وسط قوم أسلموا آخر الناس ، وارتدوا أول الناس بعد وفاة الرسول عليه السلام ، ثم عادوا إلى الإسلام بعد حروب الردة فظلوا على خشونتهم وجفاوتهم ، وإن عرف من تاريخ حياته أنه اشترك فى موقعة القادسية ، وفى فتح أذربيجان . بيد أنه لم يكن لاشتراكه فى تلك الفتوح أى أثر فى شعره ، بل ظل شعره بعد إسلامه كما كان ، جاهلى الطابع ، وعر اللغة ، فيه كزازة كما يقول الناقد العربى (ابن سلام الجمحى) ، لا سيما وقد جاء جل شعره فى الوصف : وصف حيوان الدوّ ، وبخاصة حمر الوحوش ، والظباء والناقة ، ووصف القوس ، ومناظر الصيد . والوصافون يعمدون إلى كلمات فنية خاصة ليست مألوفة ولا متداولة ؛ ولذلك جاء شعرهم الوصفى غالباً مستغلقاً وعر العبارة ، جافى الألفاظ .

وكان الشماخ من أغربهم لفظاً ؛ ولذلك قلّ الاستشهاد بشعره فى كتب الأدب ، ولم يهتم به إلاّ علماء اللغة ؛ إذ وجدوا فيه فيضاً من الغريب ، والتعبيرات الجاسية الممعنة فى البدواة .

كانت هذه أول صعوبة قابلت السيد صلاح الهادى حينما ابتدأ بحثه ، ولكنه مضى فى طريقه سالكاً المنهج العلمى السليم ، فأخذ يبحث عن نسخ ديوان الشماخ ابن ضرار فى شتى مكتبات العالم ، ووجد بعد التنقيب الطويل أنه لا توجد من هذا الديوان إلاّ خمس نسخ ، إحداها فى مكتبة جامعة (ليدن) بهولنده ، فاستحضر نسخة مصورة منها .

وتبين له أن هذه النسخ الخمس مأخوذة كلها عن أم مجهولة كانت فى المدينة المنورة فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى ، وأنها على تعددها لا تضم كل شعر الشماخ ؛ لأن هذه الأم لم تكن تحوى كل شعره ، وكانت ناقصة ومحرفة ، وفيها اضطرابات كثيرة ، وربما كانت هناك نسخ من هذا الديوان لدى بعض الأفراد فى العالم الإسلامى ، أو العربى ، أو الغربى ، ولكنه لم يهتد إليها بعد البحث الطويل ، كما وجد نسخة مطبوعة قام بطبعها أحمد بن الأمين الشنقيطى سنة ١٣٢٧ هـ بدون أن يذكر النسخ التى رجع إليها ، واعتمد عليها ، وقد حاول أن يشرح النص ، فقصر كثيراً وأجاد قليلاً ، وكان يسقط البيت الذى يستغلق عليه من النسخة ،

ويبيح لنفسه من التصرف ما لا يجوز لمحقق دقيق ، كما وقع فى أخطاء كثيرة ، فنسب إلى الشماخ أبياتاً أخذها من بطون كتب الأدب مع أنها ليست له ، كما أثبت ذلك صلاح الهادى ، داعماً رأيه بالأدلة الصحيحة .

وزاد أبياتاً فى بعض القصائد مجموعة من المراجع القديمة بدون أن ينبه على مصادرها إلاّ فى موضع واحد . وتبين لصلاح أن أحمد بن الأمين الشنقيطى اعتمد على إحدى المخطوطات الخمس المأخوذة عن نسخة المدينة المنورة ؛ لاتفاقها وإياها فى ترتيب القصائد ، والنقص الذى بها ، وترتيب أبيات كل قصيدة .

وحاول أن يتعقب ديوان الشماخ منذ أن رواه الرواة فى العصور الأولى ، فتبين له أن ثمة روايتين للديوان إحداهما بصرية ترتفع إلى الأصمعى دونها (أبو نصر) صاحب الأصمعى ، والأخرى كوفية ترتفع إلى ابن الأعرابى أملاها ودونها محمد بن حبيب ، ثم جاء السكرى وصنع الديوان من الروايتين كما يُظن .

ورحل الديوان شرقاً ، ورحل غرباً ، وأصح رحلاته هى رحلته إلى الأندلس مع أبى على القالى صاحب الأمالى ، وقد قرأه على ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى ، وظلت هذه الرواية تنحدر فى خلال العصور حتى وصلت إلى الأعلم الشنتمرى . وآخر ما علم عن نسخة الديوان ما رواه البغدادى صاحب خزانة الأدب من أشعار يرجع إليها ويستشهد بها ، ثم انقطعت أخباره حتى عثر على نسخة المدينة المنورة .

تعرض الشعر القديم ولا شك للاضطراب والرواة يتناقلونه شفاهاً عبر السنين ، وكانوا يعدون مما يزرى بالراوية أن يملى من كتاب أو يقرأ من صحيفة ، ويسمونه (صحفى) . ولا يثقون فيه ، وتعرض كذلك فى عصور التدوين لخلط النساخ وتصحيفهم ، ولا سيما فى العصور المتأخرة ؛ إذ كانوا محترفين ، يمارسون عملاً آليًّا ، ولا يفهمون النص ، أو يخطئون فى الفهم ويتصرفون بما يزيده غموضاً وإبهاماً . فنسخة دار الكتب مثلاً منقولة عن نسخة محمد بن محمود الشنقيطى التى نقلها عن نسخة المدينة المنورة ، ونسخة الشنقيطى مكتوبة بخط مغربى ، فوقع مَنْ نسخ مخطوطة دار الكتب فى أخطاء لجهله أحياناً بأصول الخط المغربى ، فكان يقرأ الطاء كافاً ، فشط يكتبها : شك ، وأشطان يكتبها : أشكال . . . وهكذا .

اعتمد صلاح الهادى نسخة محمد بن محمود الشنقيطى أصلاً ؛ لأن الشنقيطى — جزاه الله خيراً — قد قام بتصحيح ما وقع فيه الناسخ من أخطاء ، وإن لم يضبط نص الديوان ، ولذلك كانت نسخته أحسن هذه النسخ ، ثم أخذ يراجع النسخ بعضها على بعض حتى يستقيم له النص .

وكان لزاماً عليه — طبقاً للمنهج القويم — أن يقوم بتخريج النص فيراجع كتب اللغة على سعتها ، راجع منها أحد عشر معجماً ، من بينها لسان العرب بأجزائه العشرين ، ويراجع كتب الأدب القديمة المشهور منها والمغمور ، وكتب المختارات كحماسة أبى تمام وحماسة البحترى والجمهرة ، والمفضليات وغيرها ، ويراجع كتب النحو القديمة لكثرة استشهاد النحاة بشعره ، ومنها خزانة الأدب للبغدادى ، كما راجع كتب التفسير ، والتاريخ ، والطبقات وغيرها .

ووجد قصيدة واحدة كاملة رويت أبياتها متفرقة فى الكتب . وقصائد روى معظمها ، وأخرى روى نصفها ، وبعضها روى منها ستة أبيات أو أربعة ، أو بيت واحد . وفعل مثل ذلك بالأراجيز .

ولا ريب أن هذا العمل الشاق قد اقتضى صبراً طويلاً وجهداً عظيماً ، ووقتاً مديداً . بذل صلاح ذلك كله حتى يتأكد من صحة ما لديه من بقايا شعر الشماخ .

عثر فى أثناء رحلاته الطويلة فى هذه الأسفار على أبيات عديدة ليست فى الديوان ، وعلى أخرى منسوبة للشماخ وليست له ؛ إذ كثيراً ما كان يختلط شعر الشماخ بشعر أخويه مزرد ، وجزء ، وكانا شاعرين ، كما اختلط شعره بشعر الحطيئة والطرماح بن حكيم وغيرهما .

ولم يكن من السهل تمييز هذا الشعر بعضه من بعض إلا لمن عاش رداحاً طويلاً مع الشماخ ، وتشرب روحه ، وعرف نفسه ، وخصائص شعره ، وراجع بصبر وأناة شتى المراجع حتى يثبت أو ينفى ما نسب إليه . ولنضرب على ذلك مثلاً : فقد روى فى (الفائق) البيت الآتى :

إنما نحن مثلُ خامة زرع فمتى يَأْن يأْتِ محتصُده

منسوباً إلى الشماخ مفرداً ، وتأكد صلاح أنه للطرماح ضمن قصيدة طويلة (رقم ٥) فى ديوانه ، والبيت فيها رقم ١٦ ، ووجده كذلك فى (فصل المقال) ،

و (مقاييس اللغة) و (لسان العرب) و (تاج العروس) للطرماح .

وورد فى لسان العرب وتاج العروس البيت الآتى :

فصوَّبته كأنه صَوْبُ غبية على الأَمعز الضاحى إذا سيط أحضرا

منسوباً إلى الشماخ ، وهو لامرئ القيس فى الصحاح والتاج واللسان مادة (صوب) ، لقد ذكر لسان العرب والتاج مرة أنه للشماخ فى مادة (سوط) ومرة لامرئ القيس ، والصحيح أنه لامرئ القيس فى ديوانه .

وجاء فى الزهرة أن القصيدة التى أولها :

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت لقد رابنى منها الغداة سفورها

(وأورد القصيدة كلها) منسوبة إلى الشماخ ، وهى فى الحقيقة لتوبة بن الحمير فى ليلى الأخيلية ، واستدل صلاح الهادى على ذلك بما ورد فى الأغانى ، والكامل ، والشعر والشعراء ، والأمالى وغيرها . ووجد أن للشماخ قصيدة على نفس هذا الوزن والروى ، ووجد تقارباً فى معانى القصيدتين مما أدى إلى الخلط بينهما ، ولكنه وجد أن هذه القصيدة التى نسبت للشماخ فيها روح توبة الإسلامية تلك الروح التى لا تظهر فى شعر الشماخ مطلقاً .

وكان عليه بعد أن قام بتخريج الديوان ، وجمع الزيادات التى وجدت فى كتب اللغة والأدب وغيرها ، وتصحيح الأخطاء ، والتصحيف والتحريف ، وإثبات مختلف الروايات كما وردت فى الكتب المختلفة ، وترجيح إحداها — أن يقوم بضبط النص ضبطاً كاملاً . ويراجع فى ذلك شتى المعاجم ، ويستعين بالكتب التى وردت فيها الأبيات ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين .

ولم يكتف صلاح بهذا ، ولكنه أضاف جهداً جديداً حتى يذلل هذا الشعر المتوعر للقارئ بأن شرح ما يحتاج للشرح . وهو كثير جداً . ويكاد هذا الشعر لا يفهم معظمه بدون شرح أدبى ولغوى .

لقد احتوى شعر الشماخ فى الصيد والصياد ، ومنظر الحمر الوحشية يقودها حمار الوحش إلى موارد الماء وما يعتريه من حالات نفسية مختلفة ، وهو يمشى على حذر مخافة الوحش الضارى ، أو الصياد المتربص ، احتوى هذا الشعر على قطع رائعة

فى الوصف استطاع بها الشماخ أن يتغلغل فى نفسية حمار الوحش ، وأن يتتبع أدق خلجاته ، ونبضات قلبه ، ومختلف أحواله من رضا وغضب ، وخوف وأمن ، وري وظمأ ، وتعب وراحة ، ويأس ورجاء ، حتى كأنه يعيش معه ، ولا بدع أن قال عبد الملك بن مروان عن الشماخ : « ما أوصفه لها ، إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً » . لتلك الدقة العجيبة فى رصد أحواله الخارجية ، وما يختلج فى نفسه من انفعالات .

ثم تلك اللوحات الرائعة للصحراء والأدغال ، وتربص الصياد وصبره الطويل ، واستعداده للصيد واقتناص الفريسة ، وقد سمع دبيبها من بعيد ، وكيف يحبس أنفاسه ، ويخفى شخصه ويضائله حتى لا تحس به ولا تنفر منه .

ووصف القوس منذ أن كانت غصناً فى شجرة ، متوارية عن الأنظار ، محاطة بحراس شداد من أشجار الشوك ، إلى أن اقتحم عليها خدرها غير مبال بما يلاقيه من لطمات وخدوش ، ثم حصوله عليها ، وتركها عامين فى الظل الظليل ليجف ماؤها ، ويصلب عودها ، ثم تهذيبها وتثقيفها ، ثم بعد أن صارت ملك يمينه ، يعجب بها ويمنى نفسه الأمانى الطائلة بما سيناله منها ، وما ستجلب له من الخير ، وهو لم يصبر كل هذا الوقت إلا على هذا الأمل . وكيف اضطر تحت وطأة البؤس والفاقة إلى أن يعرضها فى الأسواق ، وما إن رآها من يعرف قدرها وأصالتها حتى فتن بها حبًّا ، وأخذ يساومه عليها ، ويغلى فيها المهر ، وهو متردد فى بيعها لشدة إعزازه لها وإعجابه بها ، فيكاد يرفض على الرغم من الذهب والفضة والأثواب والجلود التى بذلت فى سبيلها . وهنا يتراءى له شبح فاقته ، ويعجب الناس لتردده فيحثونه على البيع ويخفت صوت ضميره برهة فيبرم الصفقة ، ويفارقها ، وهو أشد الناس حبًّا لها وضنًّا بها ، وما إن فارقته حتى اضطرب قلبه وارتاع فؤاده ، وأخذ يتتبعها بخياله وهى فى حوزة الفارس الذى اشتراها ، وكيف يطرب لصوتها وأنينها ، وكيف تجلب له الخير . . . إلخ .

كل هذا لم يكن ليتاح للقارئ أن يظفر به وبغيره من القطع الوصفية الجميلة التى تدل على أصالة فن الشماخ ، وبالغ براعته ، لو لم يقم صلاح الهادى بضبط هذا الشعر وشرحه ، والتقديم له بهذا البحث الممتاز الذى قدمتُ له .

إن فهم هذا الشعر وتحليله ، واستخراج كنوزه وعرضها ذلك العرض الجذاب ، يدل على حسن استعداد صلاح الهادى لمواصلة أبحاثه القيمة ، ويدل على تمكن فى اللغة ودقة فى الفهم ، ورهافة فى الذوق ، ستعينه إن شاء الله على المضى فيما نصب نفسه له .

ولا عجب أن نال صلاح الهادى على ديوان الشماخ بصورته التى أخرجه بها ، تلك الصورة العلمية الممتازة التى تسير على أدق المناهج ، وعلى بحثه الذى شفع به هذا الديوان درجة (الماجستير) بتقدير ممتاز ، وإنا لننتظر منه إن شاء الله فى مستقبل أيامه مزيداً من مثل هذا البحث القيم ، وهذا التحقيق الدقيق ، والله أسأل أن يوفقه ، وأن ينفع به ، وأن يحتل مكانته فى زمرة علمائنا المحققين .

عمر الدسوقى

أستاذ الأدب العربى ، ورئيس قسم
الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

/